الدوحة أَمِ الكويت: كُلُّ الطرق لا تؤدّي إلى غزّة!

□ محمد فرج

كان متوقّعًا أن تكشف الحربُ على غزّة عن تواطؤ الأنظمة العربيّة أو تخاذلها، ولكنْ لم يكن متوقّعًا أن يمارس بعضُها الغباءَ في هذا التوقيت تحديدًا. المحور القطريّ ـ السوريّ دعا إلى قمّةٍ خاصةٍ لتدارس الأحداث في غزّة؛ وهذا يُعتبر، ضمن سقوف الأنظمة العربيّة، أكثرَ منطقيّة، وينطوي على تقدّمٍ جديدٍ لهذا المحور على الخارطة السياسيّة العربيّة، إذا ما أضيف إليه الدورُ الذي لعبتْه قطر في الشأن اللبنانيّ. أما المحور السعوديّ ـ المصريّ فاراد أن يستغلّ انعقادَ القمّة الاقتصاديّة في الكويت ليَحرم المحورَ الأولَ أيَّ دورٍ جديدٍ في المنطقة، ولوقف مسلسل تراجعه المستمرّ ـ بدءًا بالإخفاق السعوديّ في اتفاق مكة وانتهاءً بحرج الموقف المصريّ في أحداث غزّة.

تصالحُ الإيديولوجيّ على حساب الجغرافيّ

الحرب على غزّة أثبتتْ تصالحَ الإيديولوجيّ على حساب الجغرافيّ. ففنزويلا، ومن بعدها بوليفيا، قطعتا العلاقات الدبلوماسيّة مع إسرائيل من دون الحاجة إلى عقد قمّةٍ لاتينيّةٍ ولو مصغّرة. أما الأنظمة العربيّة فمنغمسة في خلافات خارج إطار المنطقة المعنيّة. فما هي نوايا أنظمةٍ تختلف على مكان القمّة وزعامتها؟! هل مصر في حاجة إلى قمّة عربيّة كي تفتح معبر رفح؟ إنْ كان الأمرُ كذلك فلها كلّ الاحترام على قدرتها على الاستفادة من عامل الوقت! هل السعوديّة في حاجة إلى قمّة عربيّة لتصرّح عن ندمها عن المبادرة العربيّة؟ وإذا كانت قطر وسوريا قد أولتا القمّة كلَّ هذا الاهتمام، فما المانع من أن تتّخذا مواقفَ أكثرَ ثوريّةً وحزمًا توازي، على أقلّ تقدير، الموقفَ الأمريكيّ الجنوبيّ؟

القمم انعقدتْ، فماذا صدر عنها؟ تنديدٌ جديدٌ خجول، أو شديدُ اللهجة في أحسن الأحوال؟ هل سيبادر الخليجُ إلى سياسةٍ تعامليّةٍ نفطيّةٍ جديدة؟ هل ستَفتح مصر بابَ الدعم اللوجستيّ لغزّة بكلّ أشكاله؟ هل سيكون الدعمُ المحدودُ مغطّى، كالعادة، بتحفّظاتٍ عن حماس؟ الأنظمة العربيّة ما زالت تعتبر أنّ المعركة مع الكيان الصهيونيّ لا بدّ من أن تمرّ بنفق حماس؛ وهذه هي الستارة الرماديّة التي تختبئ خلفها من شعوبها. غير أنّ المعركة مع الكيان المذكور معركة مباشرة، ولها أدواتها وساحاتُها المباشرة. وإنْ كان لا بدّ لهذه المعركة من نفق، فهو بالتأكيد نفقُ المعركة ضد الإمبرياليّة العالميّة التي تجعل من إسرائيل أداةً وظيفيّةً فعّالةً في الشرق الأوسط.

خصومة في مرحلة وقف الهدم

بدأت الخصومة، إنْ جازت التسمية، بين المحور السعوديّ – المصريّ والمحور السوريّ – القطريّ منطلقةً على قاعدة التزعّم والتسيّد التي اعتادتها الأنظمةُ العربيّة. المحوران في هذه المرحلة مختلفان. الأول، المتمسّك باعتداله إلى حدّ الثمالة، حاول بالدرجة الأولى، من خلال المبادرة المصريّة المهملة، تثبيتَ نفسه بوّابةَ استجداءٍ وحيدةً للكيان الصهيونيّ، ففشل فشلاً ذريعًا، ولاسيّما بعد أن أوقفتْ إسرائيلُ إطلاق النار من جانب واحد ومن دون العودة إلى مجريات المبادرة المصريّة. إلاّ أنّ هذا الحدث لم يشكّلْ تحوّلاً جذريّاً في أداء هذا المحور، وحاول ـ باستخدام النهج ذاته ـ معاتبةَ إسرائيل من خلال شرم الشيخ.

المحور الثاني كان ذا حظّ أوفر في هذه المرحلة بحكم استخدامه أداةً خطابيّةً أكثرَ حدّةً نسبيّاً وأقلَّ عرضةً لسخط الشارع العربيّ. غير أنّ القمّة الخاصّة التي بادر إليها لم تتجاوز الإسهالَ الخطابيّ، مع عدم اتخاذ خطوات أوّليّة لبرنامج شامل، يكون عنوانَه العريضَ هو الخصومةُ الحقيقيّةُ والمستمرّة للكيان الصهيونيّ.

مصالحة في مرحلة إعادة الإعمار

بعد أن توقّف إطلاقُ النار، بالطريقة الإسرائيليّة، تنفّس المحورُ الأول، ووجد مخرجًا من الأسئلة المتكررة حول جدوى مبادرته ونهجه ككلّ. أما المحور الثاني فلم يعد لخطاباته سياقٌ زمنيّ واقعيّ: فهو لا يملك برنامجًا خاصّاً بالعداء مع الكيان

إذا كانت الحدود مغلقة باتجاه غزّة، فالباب مفتوح لحملات مقاطعة الشركات الداعمة لإسرائيل (الصورة: كاترپيلر هدمتْ مخيّم جنين وقتلتْ ريتشيل كوري).

الصهيونيّ، ويعتمد ردّات الفعل لتسيير خطاباته. هنا كانت نقطة الاتفاق: المحور الأول يجيد اللعبَ في المزادات، والمحور الثاني يجيد المصادقةَ عليها! ولكنْ ماذا لو تعرّضتْ غزّة بعد عام إلى عدوانٍ جديد؟ مَن سيوقف الهدم؟ مَن سيعيد الإعمار؟

مصالحة في أيّ اتّجاه؟

الخصومة كانت قائمة بين طرفيْن، لا نهجيْن، وإلاّ لما تمّت المصالحةُ أساسًا. فلو كان الثاني ثوريّاً على حساب الأول المتراجع، لأبرز نقاطًا خلافيّةً هامّةً في آليّة التعامل مع الكيان الصهيونيّ؛ ولو كان الأولُ عقلانيّاً على حساب الثاني المتهوّر، لأبرز نقاطًا خلافيّةً في السياق ذاته!

المصالحة قامت على أرضيّة الزعامات والتسويات الأشبه بالصلح العشائريّ؛ فكلا المحوريْن يفسح المجالَ للآخر للعب في ساحته. والقمّة العربيّة وما أفرزتْه من «مصالحة» بين «المحورين» أكّدتا أنّ سقف الدعم العربيّ لا يتجاوز الخطاباتِ البرّاقة.

كلمة أخيرة: طبيعة المعركة

المعركة الآن، باختصار، هي معركةُ الشعوب الحرّة الرافضة للظلم، مصحوبةً بمعركتها في تعرية الأنظمة المتآمرة وتغييرها. إذا كانت الحدود مغلقةً باتجاه غزّة، والحريّات السياسيّة تعاني قمعًا متواصلاً من أنظمتها، فالباب مفتوحٌ لحملات مقاطعة الشركات الداعمة لاسرائيل، والباب مفتوحٌ لإيقاف المناطق الصناعيّة المؤهّلة في مصر والأردن، والباب مفتوحٌ على الجبهة العراقيّة لمواجهة الشركات المستفيدة من نظريّة «اقتصاد الكوارث» والتي تعمل في مجالات الاتصالات والمياه والريّ والتجارة الوسيطيّة والأمنيّة.

أمام الشعوب العربيّة الآن مهمّاتٌ كبيرةٌ تشكّل رافدًا حقيقيّاً لنضال الشعب الفلسطينيّ في غزّة:

- المعركة الداخليّة، المتمثّلة في تطويع الموقف الرسميّ باتجاهٍ أكثر ثوريّةً.
- المعركة الاقتصاديّة، المتمثّلة في استرداد موارد الثروة العامّة، وتلعب دورًا كبيرًا في جرأة القرار السياسيّ.
- العمل على فتح شراكاتٍ اقتصاديّةٍ جديدةٍ تخفّف من الشكل التبعيّ المتّبع حاليّاً.
- تكريس نهج المقاومة وضخّ دمائه من جديد في شرايين الشارع العربيّ.
- محاربة المشاريع الاقتصاديّة المرتكزة على الرأسمال الإسرائيليّ والمختبئة خلف وكالات عربيّة وأمريكيّة وأوروبيّة.

الكرة الآن في ساحة الشعوب، لا الأنظمة: فإما أن تضغطَ وتغيّر؛ وإما أن تكتفي بالنواحِ والبكاءِ والقنابلِ الصوتيّة التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

عمّان

محمد فرج

كاتب وناشط من الأردن.